من الفن القصصى الحديث

حينما كان طبيباً ! ...

للكاتب الفرنسى هنرى لفراند

بقلم الأستاذ مصطفى جميل مرسى

قالت مدام « دى برسى » وهى تحاور زوجها : « إذا كنت تبغى أن تلم بهذا الشأن ، فألزم أذنك الإصغاء ... فسرده يعوزه الهدوء ربما آتى عليه ... »

فنبس زوجها فى لهجة فيها شىء من الجفاء : « كشيئتك ... إنى إذن صاغ إلى حديثك ! »

فعاد صوتها يرن ، وقد شابه الارتجاف كأنما ينم عن نفس مضطربة ، قالت : « حسن ! ... إن الحياة معك لا يمكن أن تدوم ، وسأتجلد حتى الصباح ... إنك رجل شريف ، لا شك فى ذلك ، ولا يمكننى أن ألصق بك عيباً ، فأنت لم تعمل يوماً على الخاتلة والخداع ... أما أنا فلا أقل عنك إخلاصاً ووفاء منذ ذلك اليوم الذى وقفنا فيه أمام القس يعقد لنا ... ولكنا أحسسنا بعد ذلك أن مشاربنا متباينة ، وإنى لأعلم أن ثمت أناس لا يقلون عنا تبايناً واختلافاً ... بيد أن حالتنا لا تطاق ، فكل إغاءة منى تكدر صفاءك ، وإنى لموقنة أن هذا الشعور متبادل بيننا : عندما أتحدث يزعجك ذلك ، وإذا ما ضحكت أنت تثير حنقى ، وكذلك صمتنا يموج بالحقد والبغض ...

هذا أمر لا يحق إغفاله ، فأنت تود ما لا أستطيعه ، وإنى لا أجد فيك بغيتى ومرامى ، لأنك بهلق ، لا تثبت لحديثى ولا تستملح إشارتى ، بل تعتقد أننى أنغص عليك عيشك فى كل عمل آتيه ، حتى وقع أقدامى وارتداء ثيابى ! أليس هذا هو عين الحق ؟ إنى لألمح فيك — وأنا أتحدث الآن — نزعة إلى أن تهم بالقائى من النافذة »

فقال زوجها فى غمغمة : « حسن ! ما ذا أيضاً ؟ ! »

— لقد انتهى بى الفكر إلى أنه يجب علينا أن يعيش كل منا على حدة ... ليس هذا بخطئى ولا بخطئك ... إنه خطؤنا معاً ... وعلى كل حال فهذه هى الحقيقة العارية عن كل لبس وريب ، فكلانا لم يخلق لصاحبه ، وربما كانت السعادة إذا ما انفصلنا ... ليس هناك ما يمنع من انفصالنا كأصدقاء ... فما رزقنا الله طفلا نتنازع عليه ، وكل منا له دخل يغنيه عن صاحبه

— لن ألحى باللائمة عليك ، فهذا هو السبيل الذى سلكه كل فرد من أهلك « آل برسى » من الأب إلى الإبن ، وكان والداك — كما أنبأتنى — على غير وفاق ، لم يفلحا فى العيش معاً أكثر من أسبوعين ، وهذه هى العلة فى أنك الإبن الوحيد لهما ... وأخيراً يجب علينا أن نقلب أوجه الرأى فى الطريق اللائق إلى الانفصال !

وكان « مسيو دى برسى » يتلقى ذلك السيل الجارف بهدوء وسكينة ، ويهز كتفيه من حين إلى حين ، أو يقلب شفتيه فى زفرات تنم عن نفس مضطربة أو قلب مكلوم ... راح يقطع الغرفة فى خطوات واسعة ، ويداه معقودتان خلفه ، كما كان يفعل « نابليون بونابرت » عند ما تسير الأمور بما لا يشتهى ... وإذا ما كفت زوجته عن الحديث واجهها ، وأخذ يصعد فيها طرفه فى اضطراب من جرحت كبرياؤه ولمست كرامته قائلا : أأفرغت جعبتك ؟ »

— بلى ، لقد أتيت على كل ما كان يجيش فى نفسى

— إذاً ، كما تودين يا عزيزتى ... أنت ترغبين فى الانفصال ، وسأجيبك إلى طلبتك ، وسيعيش كل منا فى عزلة عن الآخر

— أنت حرى بأن تفعل ما تراه !

— شكراً ... ولكنى أمنعك من الاتصال بغيرى

— إن هذا لا يدور بخلدى ... إذا ما انفصلنا فسأعيش لنفسى ، ولن أجد فى طلبة غيرك ... لقد كنت مخلصة لك فى زواجى ، وسأظل على إخلاصى فى عزلتى ... أليس هذا ما ترمى إليه ؟ !

— لا ، ليس هذا كل ما أود ، فينبغى أن يعرف كلانا مصير صاحبه !

— مصير صاحبه ! إننا نعلمه جيداً ، راحة وهدوء ، ثم طعن في العمر ، وأخيراً إلى المقبرة حيث المثوى الأخير !

— ليس هذا ! دعيني أتحدث ! كل منا حر في اختيار مصيره ، ولكن هناك أمر يجب ألا نغفله ، فيحسن بنا أن نجعل هذا الانفصال بيننا فقط ، ويخيل إلى أنك تحبذين ذلك !

— حسن ، ولكن هذا السر لا يلبث أن يذاع في النهاية !

— ليس طفرة واحدة ، فيخف وقعه ووطأته ، ولهذا يجمل بي أن أقول : إنه ينبغي أن نذر الرماد في أعين الأصدقاء ، لكي لا ندع لهم مجالا للظنة والريب ؟ فقالت الزوجة وقد اعتمدت رأسها بين يديها : « وكيف السبيل إلى ذلك ؟ ! »

— مادمت قد صممت على الرحيل في الغد ، فلا يحسن بك أن تذهبي إلى أصحابك وأترابك في الريف أو في الخارج . إرحلي إلى بريطانيا ... ارحلي إلى « مينو » فامكثي هناك فترة لا يجد الضجر فيها إلى نفسك سبيلا ... إلى شهرين إذا أمكنك ذلك ... و « مدام بنارد » — مديرة قصرنا الريفي الذي نشأت فيه أن خلفني والداي — ستقوم على خدمتك والعناية بأمرك ما وسعها ذلك ... أرجو أن تخبريها بحضوري على الدوام

— وهذا لا تفكر في أن تأتيه ؟ ...

— بلى ، ولكن يجب أن تخبريها ، وهذا المكان يشيع فيه الجمال والإبداع في التنسيق على مبعدة فرسخين من « جوراند » — وعاصمة « باتز » ... وأعتقد أن قدميك لم تطآ هذه البقاع ... إنها مدرج طفولتي ومهد صباي ... إنها تفوق بريطانيا حسناً وروعة ... فلا تجعلي هذه الفرصة تمضي دون انتهازها !

— لقد حدثتني في لباقة وهدوء ، وإني لا أود أن أغادر بيتك هذا على سوء ... أبرق إلى « مدام بنارد » ، فسأرحل إلى « مينو » وسأمكث شهرين !

— شكراً ... سعدت مساء !

— لا ، بل قل وداعاً ... إنه فراق بيني وبينك !

ولم يرتعد صوتهما في هذا الوداع الأخير ... ولكن قلبيهما ... قلبيهما المعذبين ... كانا يخفقان ويرددان : « أهذا حق ؟ ! هل قطعت كل رابطة بيننا ؟ أيفارق كل منا صاحبه ؟ سترى أيتها الفتاة ... سترى أيها الفتى !

* * *

أقبل شهر مايو ، وهبت نسمات الربيع على الكون رخاء سجسجاً ... واتخذت « مدام دى برسى » أهبتها للرحيل إلى « مينو » في غدوة يوم أضحيان ... والشمس تدلف في خمول ، ولم تبلغ حرارتها أوجها بعد ... بدا الساحل في فتنة وروعة لا تدانيها روعة ... كأنه يبتسم لشعاع الشرق والصبح الوليد ... والأمواج تداعب رماله في رقة وهي تتسابق إليه كالطفل يهرع متعثراً إلى ذراعي أمه ... وتناثرت الخضرة في كل مكان ... والرمال تبرق صفحتها كالدر المنثور ... أنه لجو صحو يحلو لمن يبغي الهدوء والجمال ...

قضت « مدام دى برسى » أيامها الأول في تعرف محيطها الجديد . كانت سكناها في حجرة ذات جدر مكسوة بستائر صفراء مزركشة ... وتطل هذه الحجرة على مناظر رائعة ... فإلى اليمين السهل الفسيح وقد تناثرت فيه الصخور والنوائيء ... والشجيرات ذات العطر والبهاء ... وإلى اليسار يبصر المرء دغلاً من الأشجار « الصنوبرية » السامقة تصفر بين جذوعها الريح فكأنها عزيف الجن بالأرض العراء ...

أرسلت « مدام دى برسى » طرفاً شارداً إلى أمتعتها المبعثرة وإلى تلك الحجرة المنسقة ... فراحت تفكر جاهدة في تدبير غرفتها على نسق يلذ لها أن تراه ...

إن الطبيعة لَتُقَدِّم إلى أولئك اللائى يجتزن — مثل « مدام دى برسى » الأزمات الزوجية أجل المنافع ... فالهدوء والسكينة والطمأنينة تعيد إلى نفوسهن شيئاً من المحبة والشوق إلى أزواجهن بعد انفصالهن ، وتُسكن في قلوبهن ذلك الخاطر الحزين الذي طالما يطوف بهن ...

جلست « مدام دى برسى » تطوف الخواطر بخيالها ... وتعود الذكريات إلى نفسها ... فراحت تذكر أيام الطفولة البريئة الطاهرة ولعبها العديدة ، ثم عندما بدأت عيناها تنظر إلى الحياة ... وأول ثوب طويل لها ... وأول رقصة رقصتها ... ثم عندما كانت عذراء قبل زواجها ؛ وأخيراً تلك الحياة الزوجية ... كانت حياتها تنساب في غير تعثر ، فما كانت تحفل بالقصص والفجاءات ، ولا الحزن والمرح ... وإنما كانت تسير سيراً عادياً تحدده عناية الله

ومذ تسع سنوات كانت تأوى إلى مضجعها والأمل يداعب نفسها للغد القريب ... وغابت التسع سنوات سراعاً ، وها هي ذي تمازج المرارة والألم ... كانت تبغض زوجها وكذلك هو . وكثيراً ما كانت تُبدي هذا البغض في أعمالها ... أما هو فكان يبدى إستياءه

عنـد سيرها ... أو ينفر من حديثها ... بل يتبرم به ... كانت أخلاقهما متباينة متنافرة ...

ما كان زوجها بالرجل المرح الذي تصبو إليه النساء ... بل كان جامداً عزوفاً عن المجتمع ... ولكن فيه فطنة وحدة ذكاء مع سمو في الخلق وجلال في الخلال ... ذو قلب مخلص حنون. هادئ ... بيد أنها تأبى أن تعاشره لاعتزاله المجتمع ونفوره منه، بينما كان في ريعان الحياة ... وكانت تحس أن السعادة ستوانيها رويداً في عزلتها هذه ...

رضيت « مدام دي برسي » بصحبة « مدام بنارد » المدبرة الكهلة التي أقامت في القصر منذ بنائه ... وكانت موضع تبجيل الجميع ... فلم تكن بالخادمة ... لقد ربت « مسيو دي برسي » وعنيت بنشأته ... وما لبثت أن توثقت عروة المودة بين « مدام دي برسي » وبينها ... لأن هذه العجوز كانت مع شعرها الأبيض وثوبها البسيط الأسود ذات روح طيبة مرحة ونفس مجربة مدبرة ...

* * *

نهضت « مدام دي برسي » مع السيدة العجوز للتجول في أنحاء القصر فقادتها إلى غرفة بالطابق الثالث ... وقالت وهي تدفع بابها : « إني أرجو أن أطلعك على كل ما كان يمت إلى زوجك العزيز « مسيو دي برسي » في صباه ؛ فهذه هي غرفة لعبه ونومه » وجذبت باباً لصوان عتيق مكتظ باللعب المختلفة وقالت : « هذه كانت لعبه عند ما كان لا يزال دارجاً صغيراً » .

ثم راحت تستعيد أغوار الماضي السحيق وتقول في صوت خفيض : « انظري ، يا سيدتي ... لقد كانت له عروس صغيرة يعبث بها ويقبلها ويقول: سيأتي اليوم الذي أتزوجك فيه يا عروستي. لقد كان على خطأ بلا شك ، فعنده اليوم زوجة ما كان يخطر له أن يقترن بها » فلم تنبس « مدام دي برسي » ببنت شفة !.. وعادت « مدام بنارد » تقول « إن هذا يثير كوامن نفسك بلا شك ! »

— « نعم ... يا مدام بنارد ! » فمادت السيدة العجوز في عرض كل ما كان يخص « مسيو دي برسي » في غرفة نومه ... وكانت كثيراً ما يتشعب بها الفكر فتذكر اسمه القديم « لويس » فتعجبت « مدام دي برسي » من جهلها بهذا الإسم مع زواجها بصاحبه .. ثم شاهدت غرفة دراسته وكتبه وكراساته ، وتناولت « مدام دي برسي » إحداها من المرأة العجوز التي كانت تقول في شوق وشغف « انظري ! .. كم كان خطه جميلا عندما كان صبياً ... »

وقرأت « مدام دي برسي » في إحدى الصفحات عبارة بخط كبير « أين هو الحب ؟ ! » ثم قالت « أود أن أخرج لأتنسم الهواء ، فإني أشعر بدوار ... » .

مضتا في صمت إلى الحديقة ... وكان نسيم البحر يلطف من جوها ويصفر في أنحاء الغابة الصنوبرية . وراحت السحب تمضي على مهل في صفحة السماء ...

بلغت المرأتان شفير بحيرة تسبح في مائها الأزرق الساجي بجعتان ناصعتا البياض تسميان : « جوبتر » و « جانو » ... فتمتمت مدام بنارد قائلة : « هذه هي البحيرة التي كان يقطعها سابحاً بزورقه ... عندما كان صبياً ... وقد كادت أن تطويه يوماً في مائها ... إني لأذكر هذا اليوم طيلة حياتي » ...

وأدركتا نهاية المزرعة حيث كان ثمت مقعد قديم دارس نمت عليه الحشائش وكسته الأزهار ... قالت مدام بنارد : « هذا مقعده حيث كان يجلس للقراءة ... » .

وفي جولتهما مرتا بفسيح من الأرض الخضراء ، فارتفع صوت « مدام بنارد » قائلة : هذه هي الحديقة التي كان يفضلها ويقوم فيها برياضته ... » .

وعندما مرتا باصطبل للخيل ... علقت فيه السروج واللوازم والسموط قالت مدام بنارد : « كان يقطن هنا بونيفاك ! » .

— « ومن بونيفاك هنا ! ؟ . »

— « فرسه الصغير ... »

وتنقلا من مكان إلى آخر حتى أتما سياحتهما وشاهدتا صحن الدار والحدائق والأدغال والريف المحيط بالقصر والطريق وفروعه وكل ما كان يخص « لويس » من أماكن كان يرتع فيها لاعباً أو لاهياً ، ويجلس فيها قارئاً أو كاتباً ...

كانت آثاره في كل مكان ... فما تقدمت مدام دي برسي خطوة حتى بصرت بأثر جديد ينم عن زوجها إبان صباه ... وقد لوحته الشمس ودرسته صرف الدهر ...

فلما انقضت الجولة وآوتهما الدار من جديد ... قصدا البهو حيث جلستا في فرجة شرفة تطل على البحر بأمواجه الراقصة ... وراحت مدام بنارد تسرد قصة « مسيو دي برسي » في

طفولته وصباه فى لهجة صادقة مخلصة : « لعلك تدرين أن والديه كانا على قسط وافر من القرابة ... ولكنى أدرى منك بذلك ... قلما اتفقا على شىء ... ولم يكن أحدهما غريباً عن الآخر ، ولكن أخلاقهما كانت غريبة حتى أنهما عاشا منفردين طيلة زواجهما الذى لم يجتمعا فيه إلا أياماً معدودة ... فإذا حضر الوالد إلى هنا ، كان على المرأة أن تغادر القصر على الفور ... كان كل منهما مشغوفاً بسيدى « مسيو لويس » فهو ابنهما الوحيد ... ففضلا أن يدعاه هنا فى كنف ... فقمت أرعاه وأحدب عليه ما وسعنى ... فكان لى كل شىء فى هذه الدنيا ... وقضى والداه نحبهما وما زال فى المهد صبياً ... لحزن عليهما هذا التعس الشقى وكأنه يعرفهما حق المعرفة ، ولوأنى قضيت لما بكى على بكاءه عليهما مع أنى ربيته ورعيته

إنى أحيطك علماً بذلك يا سيدتى لكى تكونى على بينة من الأمر إذا لم يكن قد أفضى إليك به ... وينبغى عليك أن تشفقى عليه فهو شقى تعس ، وأحياناً تضطرب أعصابه فيثور ويهيج ويخرج عن طوره وهدوئه ؛ وما هذا بذنبه ... ولكن يرجع إلى والديه ، وإسراع المنية إليهما وهو لا يزال المهد ... فلو أنه عاش فى طفولة غير هذه الطفولة ... لكان رجلا آخر ... » .

ضغت هذه الذكريات تنساب من ثغر مدام بنارد فى إسهاب وإطناب ... حتى أقبل المساء إلى الكون ، وأخذ الشفق ينشر فى الأفق رداءه الأرجوانى الرائع ... وحينئذ سألت « مدام دى برسى » عن مصباح عزق تلك العتمة التى بدأت تثقل وتقتم ... أما « مدام بنارد » فلم تلمح تلك اللمعات التى تألقت على وجنتى مدام دى برسى لخفقهما فى سكون ...

وأخيراً وجهت « مدام دى برسى » الحديث إلى المرأة العجوز وهى تنهض قائلة « يسرنى ويبهجنى ما تحدثت به عن زوجى العزيز يا مدام بنارد ... » وضغطت على يدها فى تأثر ... فعجبت مدام بنارد لهذا التأثر ، ولم يكن هذا آخر عجبها إذ أن « مدام دى برسى » بعثت معها ببرقية لترسلها من مكتب « جوراند » إلى باريس ...

ولم تكن تدرى ما احتوته هذه البرقية ... ولكن علمت أنها وصلت باريس هذا المساء وحضر « مسيو دى برسى » فى اليوم التالى

(طنطا) مصطفى جميل مرسى

ظهر حديثاً كتاب :

دفاع عن البلاغة

للأستاذ

احمد حسن الزيات

وقد زيدت عليه فصول لم تنشر

يطلب من إدارة الرسالة ومن المكاتب الشهيرة

وثمنه ١٥ قرشاً

ظهر المجلد الثانى من :

وحى الرسالة

بقلم

أحمد حسن الزيات

وهو مجموعة متنوعة من أدب الاجتماع والنقد والحب والسياسة

يطلب من إدارة الرسالة ومن سائر المكاتب الشهيرة

وثمنه أربعون قرشاً صاغاً غير أجرة البريد

ظهر حديثاً كتاب :

دفاع عن البلاغة

للأستاذ

أحمد حسن الزيات

وقد زيدت عليه فصول لم تنشر

يطلب من إدارة « الرسالة » ومن المكاتب الشهيرة وثمنه ١٥ قرشاً

سكك حديد الحكومة المصرية

عرض الاعلانات بالمحطات

لقد وجهت المصلحة كل عنايتها إلى المحطات فأقامت بها لوحات خشبية أعدت خصيصاً لعرض الإعلانات فضلا عن أنها تبذل مجهوداً صادقاً من وقت لآخر فى تجميل تلك المحطات حتى أصبح الإعلان فيها من أحسن وسائل الدعاية التى ينشدها كل من يرى إلى التوسع فى أعماله وكل تاجر يسعى إلى رواج تجارته .

وتتقاضى المصلحة جنيهين مصريين عن المتر المربع فى السنة وهى قيمة زهيدة تكاد لا تذكر بجانب أهمية الإعلان الذى يتصفحه آلاف المسافرين فى اليوم الواحد

ولزيادة الاستعلام اتصلوا — بقسم النشر والاعلانات

بالإدارة العامة — بمحطة مصر